ترجمة وتحليل :

جزيرة الحب والجمال

بقلم الأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

.. عند مدخل خليج « نابولي » بإيطاليا جزيرة جميلة تسمى « إيسكيا ischia [1] » أوحت إلى الشاعر الفرنسي المشهور « الفونس دي لامرتين Alphonse De Lamartine » قصيدة من عيون الشعر ، فيها وصف رائع ، وخيال خصيب ، وتصوير دقيق ! .

اختار الشاعر لوصف الجزيرة أنسب الأوقات وأدناها إلى سعة الخيال ، فعرض علينا صورة من إيذان الشمس بالمغيب وطلوع القمر بعدها في رفق وأناة ، فكان مبتكراً في تصويره ، رائعاً في خياله .

أصغ إليه وهو يرسل الشعر أنغاماً حلوة في مستهل قصيدته :

١ — «آن للشمس أن تحمل النهار إلى عوالم أخرى
فأخذ القمر يطلع في الأفق الخالي بلا ضوضاء
وراح — وهو يخترق الظلمات الحالكة —
يلقي برقعاً وضاء على جبين الليل ! »

فجعل القمر ينتظر رحيل الشمس بنهارها إلى عوالم أخرى لا تحد ، ليطلع بليله في أفق خال ما فيه من الناس أحد . وجعله وقوراً يتعالى في هدوء وسكون ليبدل دجى الليل نوراً ، فإذا جبينه وضاح بعد أن ألقى عليه برقعه الشفاف . ثم يبدع في إبراز نور القمر ، فيدعوك إلى إطالة النظر ، ورجع البصر :

٢ — «انظر من أعالي الجبال إلى أنواره المتموجة
كيف تُغرق السهول كأنها نهرٌ من اللَّهب ،
وكيف تنام في الأودية وتنزحلق على الهضاب
أو تتدفق — من بعيد — من صدر يتلألأ بالمياه! »

فلو تابعت أنوار القمر كما تابعها « لامرتين » لخيل إليك كما خيل إليه أنها تنبعث من وراء رءوس الجبال ، فرأيتها تشع رويداً رويداً على السهول ، فإذا هي تنساب من فوقها كالأمواج : فتنقلب السهول في عينيك نهراً غزيراً ، ولكنه نهر من ألسنة اللهيب لا من منهمر الماء ؛ ورأيتها تهبط إلى الأودية وئيدة مسترخية ، وإذا هي تستلق عليها كالذي أخذته سنة من النوم : فتستحيل الأودية في عينيك فرشاً وثيرة ، غير أنها فرش بطائنها من النجم والشجر لا من سندس واستبرق ؛ ثم رأيتها تثب من نومها موفورة النشاط ، وتنسلق الهضاب بخفة ورشاقة ، ثم إذا هي تزحف عليها في دلال كالذي استهواه الجليد فتزحلق عليه : فتصبح الهضاب في عينيك قطعاً متجاورات من الجليد ، إلا أنه جليد من متناثر الحصى لا من متساقط الثلوج ؛ وبعد ذلك تراها تمدو كالسهم إلى مكان سحيق ، وتطوف في مجهل بعيد ، فتتبين من شعاعها أنها تحوم حول عيون وينابيع ، فتغوص فيها ثم تنفجر من صدرها وتتدفق : فتصير الينابيع في عينيك حساناً باديات النحور ، بيد أن نحورها تتلألأ بلُجين الماء لا بالدر والياقوت ! .

***

ويتأمل الشاعر المشهد تأملة الفيلسوف الذي يريد أن يتعمق كل مبهم ، ويستبطن كل سر ، ويجلو كل غامض ، ولو كان بعيد المتناول ، وعر الملتمس ، غائباً عن الأبصار — فيرى بعين بصيرته ما لم يره بعين وجهه : يرى ظلا ممدوداً ، ووميضاً غامضاً ، فأما الظل فما مده إلا تنحيه عن منطقة النور وانزواؤه في بقاع الظلام الشاحب ، وأما الوميض فما ألبسه ثوب الغموض إلا ارتعاشه وتردده حين يدنو من الظل الممدود محاولا أن يبدل ظلامه الشاحب نوراً وهاجاً ، وأن يضفي على ليله الفاحم البهيم شعاعاً من نهار لازوردي بديع ؛ ويزيد هذا الوميض غموضاً وريبة ، وإبهاماً واستغلاقاً ، أنه يعود حائلا خفيفاً ، باهتاً ضعيفاً ، حيثما بعد عن العين في فضاء لا يتناهى ، واتساع لا يحد ؛ ومع ذلك فالآفاق تؤثر أن تسبح معه هنالك لتغرق في نوره .

٣ — « والوميض الغامض .. في الظل الممدود
يضفي على الظلام الشاحب شعاعاً من نهار لازوردي ،
ومن بعيد ... في فضـــاء لا يتناهى
يسـبح بالآفاق غريقة في نوره الباهت !

(١) تهدمت هذه الجزيرة بزلزال شديد سنة ١٨٨٣

ولـكن لا مرتين يريد أن يصف الجزيرة وجمالها ، لا الشمس وغيابها ، ولا القمر وطلوعه ؛ وإنما عرض للشمس فى بيت وللقمر فى أبيات ، ليستلهم من ذهاب النهار بضجته ، وإقبال الليـل بروعته ، معانى الخلود فى قصيدته .

من أجل ذلك عاد إلى الجزيرة بقلبه ووجدانه ، وقلب البصر بين البحر وبين شطآنه ، فوجـد البحر عاشقاً وألفى الشطآن معشوقة ؛ وما كان البحر ليعشقها لولا أنها ساكنة وادعة وهو عاصف هائج — ولا يغلب الداعة كالسكون ، ولا يهدىء الهياج مثل الوداعة — فليسرع إلى تقبيل أقدامها كلما اشتدت به ريح ولا يحسبن فى ذلك ذلة أو صغاراً ، وليضم بين ذراعيـه جزرُها وخلجانها كلما أرغى وأزبد ، ولا يخافن فى هـذا لومة ولا عذلا ، ولتدب الحيـاة فى هاتيك الشـواطئ ، فعاشقها « البحر » ينفخ فيها من روحه ، وينعشها بأنفاسه الرطبة الخارجة من أعماق أعماقه ...

٤ — « والبحر عاشق هذه الشطآن الوادعة
يهدئ ، وهو يقبل أقدامها ، من عواصفه الهائجة
ثم يضم بين ذراعيه هذه الخلجان والجزر . . .
فتتنعش الشـواطئ بنفسه الرطيب . . . »

ولا يفوت الشاعر أن يسجل منظراً عجباً سريع التغير ، شديد الانقلاب كثير الالتواء : منظر الموج إذ يتقدم متلاحقاً متدافعاً ، ثم يتراجع متقهقراً مهزوما . ففى تقدمه شوق كشوق المستهام إلى حبيبته ساعة يهذى فيرى طيفها ماثلا أمام عينيه فيسعى إليه وفى تراجعه لوعة كلوعة المتحسر ساعة يعود إلى الحقيقة ، فيعلم أن الطيف خيال ، وأن الخيال سريع الزوال .

٥ — « ومن بعيد ... يسرّ العين أن تتابع منظراً عجباً
فترى الموج يتقـدم تارة ويتراجع أخرى
كالدلف الولهـان يضم إليه فى هذيانه . . .
عذراءه التى تمثل أمامه ثم تفلت من بين يديه !

وكما رأى بعـين بصيرته ما لم يره بعين وجهه ، يسمع « لامرتين » بأذن قلبه ما لا يسـمعه بأذن رأسه : يسمع لحن الموج والشاطئ إذ يتنفسان بتأوه وأنين . أما الموج فيتنفس فى تقدمه وتراجعه ويبث فى الفضاء شكواه ! وأما الشاطئ فيتنفس كلما ارتطم الموج بصخوره وبث مع الفضاء شكواه ! فكلاهما يتنفسان تنفس الصبى الحالم النائم الذى لم يبل الحياة بعد ويبث مع ذلك شكواه ! . .

حقاً أنهـا أصوات غامضة لا نعرف مبدأها ولا منتهاها ، ولا نصل إلى سرها ولا نجواها ؛ ولـكنها — على غموضها — تطرب أسماعنا ، وتشنف آذاننا ، وتسعد نفوسنا . . فهل هى أصداء لألحان السماء ؟ أم هى أنفاس الحب تردها أرض الشاطىء وموج البحار ؟

٦ — « اثنان كمثل الصبى النائم إذ يتنفس
بصـوت غامض يبث فى الفضـاء شـكواه .
ليت شعرى أصدى للسماء ما يطرب منه أسماعنا؟
أم نفس الحب تردها الأرض والبحار ؟

ثم يعود إلى الموج فلا يراه ثابتاً على حال ، يعلو طوراً كالجبال ويهبط طوراً زبداً يتلاشى ، فلا يبقى من لجبه شىء ، كهذا الانسان يولد طفلا فيتم تكوينه ويبلغ أشده فى الشباب ، ثم يضعف مع تصرم الأيام كما رد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، ثم يلقيه العجز على فراش الموت فيحتضر بعد أن يبلو الحياة حلوها ومرها ، ويجرب منها سعدها ونحسها ، حتى إذا عجزعنها زهد فى أمتع ما فيها ، وإذا ذاق من لذائذها شيئاً ضاق به ذرعاً وطلب سواه فما يزال يتحسر على المفقود ، ويسأم من الموجود ، حتى يطوى أجله فى كتاب .

فكأن تنفس الموج أنين الكئيب الذى يحزن على ما فاته من مفقود ، لا على ما فقده من موجود ، فهو ملول مما عرف ، راغب فيما لم يعرف ، وهو من مله ورغبته يتنفس فى ضيق ، ويتأوه فى حنين !

بل كأن كل ما فى هذه الطبيعة — لا الموج وحده — يتحسر مثلنا معشر الناس حتى فى ساعات الهناء والنعيم !

٧ — « إنه يعلو ويهبط . . . ويولد ثم يحتضر
كأنه ضـاق ذرعاً بأنواع اللـذائذ
وى ! كأن الطبيعة تتنفس فى هذه الليالى
متحسرة مثلنا حتى فى ساعات الهناء ! »

* * *

ويرى الشاعر عند هذا أن الإنسان خلق مجولا ، يسرف فى أنواع طلبه ، ويزيد فى ضروب رغبته ، ولا يقنع بالحاضر من لذته ، فيشيح بوجهه عن قليل بين يديه ، حباً لكثير لا يصل إليه ، فتضيق عليه الأرض بما رحبت ، ويعيش كاسفاً باله قليل الرجاء ؛ فهو لم يمت فيستريح ، ولكنه ميت بين الأحياء ، فينادى لامرتين هذا الميت — وهو فى اعتقادى لا ينادى غير نفسه — ليثوب إلى رشده ، ويفتح لتيارات الحياة روحه : إذ الحياة لا تضيق إلا بضيق الأنفس ولا تظلم إلا بظلامها ، كما لا تتسع إلا بسعتها ولا تشرق إلا بإشراقها — فليفتح الإنسان للحياة ما استغلق من أبواب قلبه حتى يشعر بأنه حى ، أما إذا جعل دونها سداً فلا يلومن إلا نفسه إذا بقى ميت الروح . وليتلق الإنسان لذاذات الليل الحاضرة ، ومتعه العاجلة ، بجماع حواسه ، حتى يشترك سمعه وبصره وذوقه وشمه وكل عضو فيه فى الشعور بالحياة الحقيقية . وليغتنم الليل إذا سجا ؛ فإن له لباساً يغشى ، وحجاباً يستر ، وظلا يناجى ، وكوكباً يهدى . وليسكر بخمرة الغرام ، فإنها أشهى المدام : أما إذا لم يفعل فهو فى نظر هـذا الشاعر ميت الروح ، حقيق بأن يسمع هذا النداء :

٨ — « أيها الميت ! افتح روحك لتيارات الحياة
وتلق بجميع الحساسات لذاذات الليـل
فظـله يناجيك ليسكرك بالغرام
وكوكبه فى السماء يطلع ليهديك ! »

وإن فى هذا لإغراءاً ما كان لمثلى أن يتقبله بقبول حسن ، ولا كان لى أن أسكت عليه لولا أنى أمام قصيدة نصبى منها ترجمتها وتحليلها ، ولولا ما يشفع للشاعر من أنه فى « جزيرة الحب والجمال » وأن له فى تلك الجزيرة محبوبة تواعدت معه على اللقاء عند هضبة قريبة ، واتفقا على أن توقد ناراً لتكون مناراً يضىء بين الحب فيجد هدى فى الاستدلال إلى الطريق . فالشاعر هنا يخاطب نفسه ويصور أحاسيسها قبل أن يخاطب أحداً أو يصور أحاسيس أحد . وإن ما فى هذه القصيدة من قوة الروح لعائد إلى أنها تابعة من إعجاب قلب « لامرتين » فى شىء من خصوصيات حياته .

فالنتيجة التى يريد أن يبلغها بنظمه هى إحاطة نفسه بشىء من معانى الجمال التى لا تتناهى فى الزمان والمكان ، وفيما تسمعه الأذن وفيما تبصره العين وفيما تمسه اليد وفيما يحسه القلب ، قبل أن يصل إلى موعد اللقاء الذى تبدو فيه الحبيبة من بعيد منحنية انحناءة الزنبقة العطشى إلى الماء ، لأنها عطشى إلى لقاء المحبوب ، تتسمع كل نأمة فى الليل وكل حركة وتحسبها خطاه التى تذرع الأرض فى سبيله إليها ، لتكتحل عينه بمرآها ، ويفرح قلبها برضاه

٩ — « أترى على الهضبة ناراً ترتجف من بعيد ؟
إنها بيـــد الحـــب منـــار يضىء
هنـالك تنحنى الجميلة انحنـاءة الزنبقـة
وقد أعارت أذناً صاغية تترصد خطى المحبوب ! »

هذه « ايسكيا » جزيرة الحب والجمال ، وصفها لامرتين فأحسن وصفها ، وسكب روحه كلها فى أبياتها ، لذلك اخترتها من بين قصائده لأرجحها وأحلاها ما استطعت دليلا على إرهاف حسه ، وصدق شعوره ، وعمق خياله ، ولأسجل إعجاب الناثر بشاعر عظيم .

صبحى ابراهيم الصالح

وزارة الزراعـــة

إعلان

سيعمل مزاد علنى بمكتب حضرة صاحب العزة مدير قسم الطب البيطرى بوزارة الزراعة بالدقى ظهر يوم السبت ١٤ فبراير سنة ١٩٤٩ عن بيع ٢٠٠ متر مكعب من السبلة المتخلفة بين مواشى معمل استخراج المصل بالعباسية تحت الزيادة والعجز خلال المدة من أول مارس سنة ١٩٤٨ إلى آخر فبراير سنة ١٩٤٩

فعلى من له رغبة دخول المزاد أن يتقدم فى الموعد المحدد ومعه تأمين ١٠٪ من القيمة وللقسم الحق فى قبول أو رفض أى عطاء بدون ابداء الأسباب.

٨٨٢٥